## أما قبل :

لا أعتقد أن ثمة أمة اعتنت بالمرأة وبتراثها مثلما نجد في أمتنا العربية، فللمرأة في الأدب العربي أثر واضح لا يقل عن أثرها في الآداب الأخرى ، ففيه من روحها سمو ، ومن وحيها إلهام ، ومن مشبوب العاطفة غرام ..

لقد احتلت المرأة العربية حيزاً كبيراً في وجدان العربي - على وجه العموم - تمثلت في خيال الشعراء ، وازدحمت بصورها التي استولت على مشاعر الأدباء ..

ومن ثم كان وحيها إنطاقاً لروائع الشعر ، وقطوف الأدب ، ومن شدة الولع بها هام بها خيال الشعراء حباً وحنيناً إليها ، وافتناناً في وصفها وتصوير محاسنها ..

إن من يطالع أدبنا العربي على كافة مستوياته يجد صوراً متعددة للمرأة.. هذه الصور اختلف النقاد في تفسيرها ، فذهب كل ناقد حسب بغيته ووجهته التي أولاها رعايته ، ورمزوا لها برموز متعددة ، فهي رمز للأمومة أو الخصوبة كالمهاة والغزالة من الحيوان، أو النخلة من النبات ، كما أنهم جعلوها رمزاً مقدساً كالشمس ... الخ وعليه فقد ظهرت هذه

الرموز متجاورة لا متعارضة، فكلها تعلى من قدر المرأة ومكانتها على المستويين الروحي والجسدي..

وهذا بطبيعة الحال يفسر لنا هذه الكثرة من القوالب التصويرية عنها، ويوضح لنا مدى افتنان الرجل بها ، وحرصه على خلق نموذج مثالي لها - وخاصة لدى شعراء الجاهلية على وجه التحديد - لا يحق لأي شاعر أن يخرج عليه ..

وقد دفع الأمر الشعراء لرسم صورة للمرأة أوصلتها إلى حد فاق الخيال ، ويكفى أنك – هذا إذا وضعنا في اعتبارنا تلك الملكة اللغوية والتصويرية التي منحت للشعراء ، ومدى الإلهام الذي يعيش فيه الشاعر ويجعله يتميز عن باقي أفراد المجتمع ، وله في المجتمع حينذاك نظرة خاصة ، ومكانة مرموقة .. – لو طالعت الكثير من شعرنا العربي في الجاهلية – على وجه الخصوص – لوقفت على مجموعة من الصور النمطية التي تشبه إلى حد ما مصطلح الكليشيه أو ما يسمى بالتعبيرات الجاهزة Ready Mode Expression ، فتجد صورة المرأة البدينة ، أو الممتلئة الأرداف إلى حد مقلق ، لقد اهتم الشعراء – حينذاك – بالمظاهر الحسية التي تعبر عن الأشكال الظاهرة ، وكأنه حينما يتعرض لوصفها يتعرض لكل ما يستلذ له هو في المقام الأول ... وهذا يعود – في اعتقادنا– إلى مجموعة القيود التي فرضتها البيئة وحددت من خلالها طبيعة العلاقة بين الجنسين في الجاهلية ... ومن ثم فإن هذه الصور الممزوجة بالخيال الجامح جاءت معبرة عن وجهة لظر واحدة ، وهي تلك النظرة التي تبناها الرجل مشكلاً من خلالها نمطاً تصويرياً يكاد يكون أسطوريا ..

واسمح لي في ومضة سريعة أن أستعرض جانباً من هذه الصور، فهي البكر المعشوقة ، رقيقة الخصر ، المنعمة غير المبتذلة ، التي لم تتعرض لأدواء القرى ، وكافة الشعراء وضعوا صورة مثالية أبعد ما تكون عن الحقيقة ، فهي صورة لا تتعلق بامرأة بعينها ، وإنما تختص بكل النساء ..

صحيح أنه قد تكون هناك بعض الاختلافات حول الصورة المرسومة، ولكنها تدور خارج الإطار المحدد للصورة .. فهي صورة مقدسة ، لها مجموعة من العناصر التركيبية المميزة لها ، فالوجه كالشمس ، ومرتبط دوماً بإضاءته للظلام ، كما صوره امرؤ القيس في معلقته ، حيث يقول [1] :-

تضيءُ الظَّلام بالعِشاء كأنّها

مَنَارةُ مُمْسَي رَاهبٍ مُتبتِّل

وهو تصوير يتكرر عند كثير من شعرائنا الجاهليين ، وكأنه نمط ثابت لا يجوز لأحد أن يقلل منه أو يزيد عليه ... فقد ورد عند طرفة بن العبد في قوله [2] :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها

عليه نقيُّ اللَّوْنِ لم يَتَخَدَّدِ

وهي لا تقف عند حدود الوجه المشابه للشمس بل هي الشمس، فإذا غابت شمس الكون ، جاءت هي لتحل محلها ، كما أنها مثل البدر في تمامه وكماله ، هكذا وصفها ورسمها عنترة بقوله [3] :

أشارت إليها الشمسُ عند غروبها

تقول إذا اسودَّ الدُّجى فاطلعي بعدى

وقال لها البدرُ المنير ألا أسفري

فإنـــك مثلى في الكمال وفي السَّعْدِ

ولا يقتصر هذا التصوير عند حد معين ، فهو يـــأتي علـــى أشـــكال وأنماط متعددة كما نرى ، فهي كالشمس ولكن لكلٍ وجهة نظره التي يـــرى من خلالها الشمس .. فمثلاً هي الشمس المضيئة التـــي تضـــئ النهـــار ، وتضئ أيضاً في وجه الظلام .. كقول لبيد [٤] :-

وتضئُ في وجْه الظَّلام مُنيرة

كَجُمانَةِ البَحْرِيِّ سُلَّ نِظَامُهَا

وإذا كان هذا الوصف قد يُفْهم منه أنه مُوَجّه إلى البقرة ، فإن مـــن مراحل الوصف هو تشبيه المرأة ببعض صفات البقرة مثل إضاءة الوجه .. كما أنها غراء ، فرعاء ، مصقول عوارضها ، وتمشى الهوينا ، لها صوت حُلِيَ يتبعها عند مشيتها ، هركولة فنق ، متقاربة الخطـــو كمـــا يصـــورها الأعشى في قوله [٥] :

غَرَّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوارِضُها

تمشى الهُوَيْنَا كما يمشى الوَجِى الوَحِلُ

تَسْمَعُ للْحَلْي وسْوَاساً إذَا انْصرفَتْ

كما اسْتَعَـــانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زجِـــلُ

هركولَةٌ فُنُقٌ دُرْمٌ مَرافِقُهَا

كأنَّ أَخْمُصَهَـــا بالشَّـــوكِ مُنْتعِـــلُ

ومن شدة جمالها ، واتساع عينيها ، يستطيع المرافق أن يشعل النار فيرى ضوءين : ضوء النار ، وضوءها الذي يلوح كما يلوح الضياء ، يقول الحارث بن حلزة [٦] : -

أوْقَدتها بَيْنَ العقيق فَشَخْصَ

سين بِعُودٍ كما يَلوحُ الضِّياءُ

وهى منعمة مترفة ، ما تجد صعاباً في عيشها ..

يقول مالك بن حريم الهمدانى [٧] : -

مُنعمةٌ لم تَلْقَ في العَيْشِ تَرْحَةً

ولم تَلْقَ بُؤساً عند ذاك فتجْدعَا

ويضوع منها المسك ، حتى كأنك تدرك أنها تمشط شعرها بالريحان، قال العباس بن مرداس [٨] :

تَضَوَّعَ منها المسكُ حتَّى كأنَّما

تَرجَّلُ بالرَّيْحانِ رطْباً ويَابِساَ

وهى عفيفة في قولها ، يقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى [٩] :

تُسْمِعُ الحداث قولاً حسناً

لو أرادوا غيره لم يُسْتَمَعْ

وأمام هذا الكم المتعدد من الجوانب التصويرية التي ازدحمت بها الأشعار والقصائد الجاهلية المعبرة عن المرأة من وجهة نظر الرجل - لم- تقف هي حيال ذلك مكتوفة الأيدي، فأبدت تجاوباً ملحوظاً ، وقامت بمشاركة الرجال في أدبهم مؤثرة فيه ومتأثرة به ، فنقلت عنهم ورووا عنها. ونظمت

الشعر ، وأجادت الغناء ، فبعثت في أدبنا العربي منذ فجر نهضته حياة زاخرة بالقوة ، على تعاقب العصور واختلاف البيئات .

د. عصام خلف كامل

**بين يدي البحث :**

لم أستطع التوقف عند حدود الجوانب التصويرية للمرأة ، فحاولت البحث عن المرأة من خلال المرأة ، فالمرأة مبدعة وناقدة .. وتطلب الأمر العودة إلى كتب التراث العربي مفتشاً ونابشاً من خلالها عما يروى ذلك الظمأ الذي يجول بداخلي ..

وكان ما يشغلني وبشدة سؤال مهم وهو : هل هذه المرأة التي شغلت حيزاً كبيراً من فكر ووجدان العقل العربي لم تستطع أن تعبر عن نفسها ؟ ..

ووجدت أبا العباس محمد بن يزيد المبرد يستشرف المستقبل ، وكأنه يعلم بان ثمة سؤالاً سوف يتطرق إلى ذهن باحث مثلي وذلك في قوله مجيباً على هذا التساؤل المتواضع قاطعاً بإجابته كل ما يتعلق بهذا الأمر من حيرة ، متعرضاً لشعر الخنساء وليلى الأخيلية بقوله:
" وكانت الخنساء وليلى باثنتين في أشعارهما ، متقدمتين الفحول ، ورب امرأة تتقدم في صناعة ، قلما يكون ذلك " (١٠)

وهى إجابة فيها نوع من الدبلوماسية ، حيث إن مقدماتها لم تؤد إلى نتائج ومعطيات يمكن الارتكاز عليها ، فإذا كانت الخنساء وليلى متقدمتين في أشعارهما ، بما قد تصلان به إلى درجة الفحول ، فإن ذلك لا يعنى تقدم كل النساء في الشعر ، فهو أمر تبعيضي ، وكانت النهاية أصدق دليل على ذلك في قوله " ورب امرأة تتقدم في صناعة " أي أن تقدمها يأتي على سبيل الصدفة ، وكأنها ليست من أهل ذلك ، وهذا ما وضح في قوله " قلما يكون ذلك "..

بيد أنه سرعان ما يذكر ( أي المبرد ) بعض أعلام النساء ممن تفوقن في باب من الأبواب وذلك في قوله : " فممن ندر من النساء في باب من الأبواب ، أم أبواب الأنصارية ، وأم الدرداء ، ورابعة القيسية، ومعاذة العدوية . فإن هؤلاء النسوة تقدمن في الفضل والصلاح على تقدم بعضهن بعضاً .

## حدثني الجاحظ عن إبراهيم بن السندي قال :

كانت تصير إلى هاشمية ، جارية حمدونة ، في حاجات صاحبتها فأجمعُ نفسي لها وأطرد الخواطر عن فكرى ، وأحضر ذهني وجهدي ، خوفاً من أن تورد علىّ ما لا أفهمه ، لبُعد غورها ، واقتدارها على أن تجرى على لسانها ما في قلبها " (١١)

والتقدم هنا يأتي على سبيل الندرة ، ولكنه تقدم فيه دقة وعلو في المنزلة ..

وعود على بدء لماذا لم تقدم كتب الاختيارات العربية أدب المرأة بشيء من التفصيل ؟

ولماذا تتناوله في مواقف عابرة على سبيل الاستشهاد أو نادرة إلى حد ما ؟

فهل ذلك يعود إلى عيب في التدوين ؟ أم إن أصحاب الاختيارات عزفوا عن ذلك مفضلين عنصر الذكورة على الأنوثة .. ؟

وممن ذهب إلى ذلك وأيده الدكتورة " بنت الشاطئ " (١٢) التي ارتأت أن حركة الجمع والتدوين التي بدأت في العصر الأموي ، والتي بلغت أوجها في العصر العباسي قد تمت على أيدي رجال أمنوا بعقلية مجتمع كان

قد حكم على المرأة بالوأد المعنوي بعد أن تم عزلها عن الحياة العامة في بيوت الحريم .

وهو اتهام نشم فيه رائحة التعصب لجنس المرأة ، وذلك بإلقاء التهمة على الرجل .. على أية حال إن المسألة ليست فيمن دون الأدب بعامة ، وإنما تعود إلى ما يسمى بأدب القلة، ونقصد بالقلة هاهنا قلة إنتاج المرأة في النواحي الأدبية إذا ما قيست بالرجل حينذاك ..

أما يختص بأن كتب الاختيارات العربية وتناولها لأدب المرأة ، فقد جاء التناول على عدة أوجه كالآتي : -

١- تناول محدود جداً .

٢- تناول موجز .

٣- تناول تفصيلي .

أما التناول المحدود فنجده عند صاحبي المفضليات والأصمعيات.. فقد أورد كل واحد منهما قصيدة يتيمة لعنصر الأنوثة في اختياراته .. فأفرد صاحب المفضليات قصيدة لامرأة من حنيفة ( المفضليات ٧٩)، وكذلك فإن والأصمعيات لم تقدم إلا قصيدة " لسعدي بنت الشمردل" (والأصمعيات٢٧)...

والنوع الثاني والمقصود به التناول المجوز فهو ما تجده عند بن سلام الجمحي ، حيث إنه لم يتناول في طبقاته إلا شاعرة واحدة وهي الخنساء ، وعدها في طبقة المراثي ، وكأن المرأة العربية لا تصلح إلا لذلك، أو لهذه الطبقة .

وأما النوع الثالث فهو نوع من التفصيل ، وهو عبارة عن أحاديث مطولة ومتنوعة عن المرأة ، وتجد ذلك عند صاحب الأغاني على مدار أجزاء أغانيه ، فهو يرصد لأخبار النساء وما يدور في مجالسهن ، أو أخبار الشعراء مع معشوقاتهم والحوار المتبادل بين الطرفين وإنك لتجد طرافة حينما يذكر نمطاً هجائياً بين الشاعرات والشعراء ، مثلما ذكر في خبر " ليلى " و " النابغة " ، فقد ذكر في الجزء ( ٥ / ١٣ : ١٨ ) [١٣] مهاجاة بين ليلى الأخيلية والنابغة والجعدي ، تستشعر منها مدى بلاغة المرأة العربية وفصاحتها . هذا بالإضافة إلى الكثير من المواقف التي سنتعرض لها في هوامش البحث ، وشبيه بذلك ما أورده صاحب كتاب الكامل في اللغة والأدب ، فقد استشهد بكثير من أشعار النساء التي تعبر عن ذاتية المرأة ورؤيتها لكل ما يحيط بها ولا يمكن التوقف عن هذين المصدرين ، فهناك زخم كبير ، وأشعار ونصوص نثرية ازدحمت بها المصادر العربية القديمة ، حوت بين دفاتها كل ما يتعلق بأدب المرأة العربية وأخبارها مع اختلاف طريقة هذه المصادر في التناول من حيث الكم والكيف .

فمن هذه الكتب من اختار لنفسه اسمًا خاصًا بالنساء ككتاب أخبار النساء لابن القيم الجوزية ، وكتاب نزهة الجلساء في أشعار النساء للإمام السيوطي ..

ومن الكتب من خصص فصلاً بعينه أو جانبًا للحديث عن النساء كما فعل ابن قتيبه في كتابه " عيون الأخبار " حيث انه عقد بابًا خاصًا أطلق عليه مسمى " كتاب النساء " [١٤] .

كثيرة إذن مصادر التراث العربي التي اهتمت بالمرأة وأدبها وقضاياها ، وهذه النظرة الإحصائية ـ على قلة ما ذكرناه ، وكثرة ما نكون قد تركناه ـ تبرهن على ثراء التأليف الأنثوي ، وما يتميز بحس أنثوي خالص ، مما يجعلنا نفرد له هذه الدراسة الخاصة ، محاولين الوقوف على أهم القضايا التي تناولتها المرأة بشيء من التفصيل . واضعين في اعتبارنا أن الأدب هو وليد الفترة الزمنية المرتبطة بانعكاسات بيئية .. وهذا بدوره يوصلنا إلى إشارة مهمة وهي أن قضايا المرأة تختلف من بيئة إلى أخرى ومن فترة زمنية إلى أخرى مع الارتباط بحدود المكان وما يتعلق به من عادات وتقاليد ....الخ ..

ومن ثم فان موضوعات المرأة الجاهلية ـ وبلا شك ـ تختلف عن موضوعات المرأة في صدر الإسلام ...

فبينما تجد الأولى تعبر عن الفخر والقوة والقبيلة ورثاء الأبطال ، تجد الثانية تعبر عن الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ، والشهادة وتمجيدها.. وفي العصر الأموي تجد المرأة قد انشغلت بأمور أخرى مثل الخلافة والحزبية لفريق دون آخر ، فهي هنا امرأة سياسية من الطراز الأول ..

وتمضي المرأة العربية في أدبها مرتبطة بظروف عصرها وما يحدث على المستويين المكاني والزماني من عصر إلى عصر حتى عصرنا المعاصر وما حفلت به المرأة من مكانة مرموقة ، تبوأت من خلالها أرفع المناصب الإنسانية ..

وإذا كنا قد تحدثنا عن المصادر القديمة وندرة من خاض من المؤلفين في أدب المرأة والحديث عنها ، فإننا لا يمكن أن ندعي أننا أول من خاض هذا المجال ، فثمة رجال نهضوا بذلك منذ فترة بعيدة ، كما أن أساتذتنا قدموا دراسات متنوعة اهتموا من خلالها بأدب المرأة، ونحمد لهم حسن توجيههم لنا لدراسة مثل هذه النصوص الأنثوية الخالدة ..

وهكذا فإننا سنمضي في بحثنا هذا مناقشين لمجموعة من المفاهيم على النحو التالي :ـ

**( ١ ) مفهوم الأدب النسائي .**

**( ٢ ) دراسة نصوص شعرية ونثرية متعلقة بهذا الجانب توضح القيمة الفنية والجمالية لهذه النصوص .**

آملين أن تصبو هذه الدراسة للهدف الذي وضعته من أجله وتضيف بعدًا جديدًا يخدم أركان الدرس الأدبي .